الفصل الثانى

عروبة القدس قبل دخول الإسلام

بالآف السنين

obeikandl.com

obeikandl.com

□ وتأكيداً وتفصيلاً لما جاء فى الفصل الأول مما لا جدال فيه أن اليبوسيين هم أول قوم بنوا مدينة القدس فى حدود عام ٣٠٠٠ق.م[١]. وأسموها «يبوس» نسبة إليهم. والجدير بالذكر أن اليبوسيين تسموا بهذا الاسم نسبة إلى جدهم يبوس. وأنه ما من أحد يراوده أدنى شك فى أن اليبوسيين هم فرع من الكنعانيين العرب الذين سكنوا فلسطين منذ الآلف الرابع ق.م[٢].

وترجع الروايات التاريخية عروبة الكنعانيين. فهم عرب من العمالقة سكان الجزيرة العربية[٣] الذين هاجروا منها إلى البلاد الخصبة المجاورة كغيرهم من المهاجريم الساميين الذين اضطروا إلى ترك موطنهم الأصلى تحت شدة وطأة الجوع والقحط وغير ذلك من المؤثرات العامة التى ألمت بأحداث وطنهم.

وتثبت الشواهد التاريخية والأثرية واللغوية أن مدينة «يبوس» اتخذت اسماً كنعانياً جديداً هو «يورو سالم أو يورو شالم» وتعنى مدينة الإله سالم أو شالم إله السلام عند اليبوسيين[٤]. وكان «ملكى صادق» ملك اليبوسيين هو أول من أطلق على المدينة هذه

(١) المركز القانونى للقدس – سالم الكسوانى.
(٢) تاريخ القدس – عارف العارف.
(٣) تاريخ الطبرى جـ ١.
(٤) إسحق موسى الحسينى.

التسمية. وفى عهده ظهرت فى المدينة أول جماعة سكانية اعتنقت التوحيد فى عبادة إله واحد. وفى عهد هذا الملك بدأت المدينة بالاتساع التدريجى وغدت مركز ثقل اليبوسيين. ومنذ ذلك الزمن والمدينة تحتل مكانة مقدسة فى النفوس. ولا شك أن الاسم الذى يستعمله اليهود اليوم هو «أورشليم» هو تحريف لاسمها الكنعانى «يوروشالم أو أوروشالم» الذى ورد فى نقش فرعونى قديم يعود تاريخه إلى القرن التاسع ق.م. كما أن هذا الاسم كان قد ورد فى لوحة من ألواح تل العمارنة، وهى محفوظة فى المتحف المصرى بالقاهرة يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق.م. أى قبل دخول العبرانيين إلى فلسطين بمدة طويلة[1]. ولما جاء الفتح الإسلامى غلب على المدينة اسم «بيت المقدس» أو «البيت المقدس» لتكون المدينة الإسلامية مطهرة لله سبحانه وتعالى.

كانت قدسية المدينةراسخة عند اليبوسيين قبل مجئ العبرانيين إليها، وكان فيها بيت لاله اليبوسيين الأعلى قبل أن يمر بها سيدنا إبراهيم عليه السلام بزمن طويل جدا. وفى التوراة إشارة إلى أن العبرانيين لم تكن لهم علاقة بنشوء مدينةا لقدس، وكانوا يرون أنفسهم غرباء عنها. ففى عام ١١٥٠ ق.م حين كان بعض الإسرائيليين قد دخلوا فلسطين بقيادة ملكهم يشوع، ولكنهم لم يكونوا بعد قد دخلوا القدس، كان رجل إسرائيلى وامرأته وغلامه

(١) منظمة التحرير الفلسطينية مفكرة القدس.

مسافرين ذات يوم فأدركهم الليل وهنا تقول التوراة « وفيما هم عند يبوس قال الغلام لسيده تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيده لا نميل إلى مدينة غريبة لا أحد فيها من بنى إسرائيل.

بنى اليبوسيون مدينتهم فى مكان مطل على المنطقة المحيطة بأكملها. واحتل موقعها مكانا وسطا بين شمال البلاد وجنوبها فصارت يبوس من مدن القوافل فى المواقع والموضع، وأكسبها مكانة عسكرية حربية بالغة الأهمية لأنها تقع على قمم الجبال التى ترتفع ما يقارب من ثمانمائة متر عن سطح البحر. وغدت المدينة فى موقع محصن يستعصى على الغزاة. ولا يمكن الوصول إليها والتمكن منها إلا بعد ممارسة التجربة العسكرية القاسية التى تكلف الكثير قبل بلوغ الهدف. فالمدينة تطل على أرض البحر الميت وعلى جبال الأردن من ناحية الشرق. وتأسيسا على هذا فقد تمتعت المدينة بمركز تجارى وآخر عسكرى وهما قاعدتان أساسيتان من قواعد مقومات مراكز الثقل الأساسية آنذاك.

بنى الكنعانيون المدن والقرى المحصنة فى فلسطين. وأنشأوا تجمعات زراعية مستقرة. وأسسوا حضارة ذات طابع متميز، حتى أن حضارتهم هذه كانت قد تمكنت من غزو الأقوام المجاورة للكنعانيين أو تلك الأقوام التى حلت محلهم فيما بعد. وقد وجدت نصوص فرعونية قديمة يرجع تاريخها إلى ألفى سنة ق.م.

تشير إلى وجود الكنعانيين فى القدس وتكشف كذلك عن حضارة متقدمة كان قد حققها الكنعانيون الذين توصلوا إلى استعمال المعادن.

كان اليبوسيون قد بنوا هيكلا للإله «سالم» على أحد مرتفعات مدينتهم. وقد اقتبس العبرانيون عن اليبوسيين هذا المظهر الدينى. ففكر نبى الله داود فى بناء (معبد) الهيكل فى مكان اليبوسيين بعد أن دخل مدينتهم. ولم يتمكن نبى الله داود من بنائه، وجاء ابنه سليمان من بعده فبناه على النمط الكنعانى من حيث الفن المعمارى. وقد استعان سليمان ببنائه بالملك «حيرام» ملك الفينيقيين الذى أمده بخشب الأرز والمعماريين والبنائين[١]، وكان الملك حيرام قد أنشأ بينه وبين نبى الله داود وابنه نبى الله سليمان أوثق العلاقات لأن حيرام ملك صور كان يبغى أن يكفل لتجارة بلاده طريقا عبر التلال العبرانية. ونشأت برعاية حيرام أسوار مدينة أورشليم وقصرها ومعبدها، وفى مقابل ذلك أخذ سيل من التجارة يتدفق خلال مدينة أورشليم نحو الشمال والجنوب[٢]

لقد تعرضت بلاد اليبوسيين إلى غزو عبرانى. فهاجم العبرانيون عامة اليبوسيين عدة مرات ولكنهم لم يتمكنوا من دخولها إلا فى عام ١٠٠٠ ق. م فى عهد النبى داود[٣]. وقد دافع اليبوسيون عن

(١) هيكل سليمان - سفر الملوك: الاصحاح التاسع.
(٢) موجز تاريخ العالم ف. ج ويلز.
(٣) نفسه.

عاصمتهم وبلادهم ردحا طويلا من الزمن. وقد صمدت هذه المدينة فى وجه الغزو العبرانى المتهالك عليها. ولم يتمكن العبرانيون من دخولها إلا بعد أن تفرقت كلمة اليبوسيين يوم أن كانوا فى أواخر عهدهم ويوم أن انقسموا على أنفسهم، ويوم أن توقف الدعم الذى يقدمه الفراعنة لهم عندما انشغل الأخيرون بقضاياهم الداخلية والخارجية. إضافة إلى هذا كله فإن دولة اليبوسيين كانت قد شاخت ودب فيها الضعف والخوار.

وبالرغم من أن العبرانيين تمكنوا من القضاء على اليبوسيين والكنعانيين من الناحية السياسية، إلا أنهم لم يتمكنوا من القضاء على حضارتهم أو على كيانهم الاجتماعى. إذ ارتحل الكنعانيون إلى القرى المجاورة لمدينتهم، وهناك شكلوا مجتمعات كنعانية نشطة ظلت تحافظ على طابعها الكنعانى المتوارث، وقد حدا هذا ببعض المؤرخين إلى القول بأن سكان القرى المجاورة لمدينة القدس فى وقتنا الحاضر هم من بقايا السكان الكنعانيين الذين كانوا أصحاب البلاد قبل أن يتمكن العبرانيون من احتلالها.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه فى الآونة التى دخل فيها اليهود بعض المدن الكنعانية، كانت هناك قبيلة كريتية نسبت إلى جزيرة كريت فى البحر المتوسط وتسمى أهلها بالفلسطينيين (وهم غير الكنعانيين العرب). وجاءت هذه القبيلة من بلاد اليونان وسيطرت على الجزء الجنوبى من أرض الكنعانيين. وأسست مدنا مشهورة فى

فلسطين، فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر مدن غزة وعسقلان واسدود وعاقر وغيرها. ومنذ ذلك الزمان ظهر اسم فلسطين فى المنطقة نسبة إلى هذه الجماعة التى قدمت من بلاد بحر ايجة بعد الغزو الأوروبى لبلادها. ومع أن هذه القبيلة قد اختفت تدريجيا عن مسرح الأحداث فى المنطقة إلا أنها كثيرا ما حاربت العبرانيين وانتصرت عليهم فى أكثر من موقعة(١). ومن هنا نلاحظ أن الغزو العبرانى لأرض كنعان لم يتمكن من السيطرة على جميع الأراضى الكنعانية.

يقول المؤرخ هـ. جـ ولز :« . . ومهما يكن من امر فإنهم (العبرانيين) لم يفتحوا إلا منطقة التلول الداخلية فى أرض الميعاد، ولم يزيدوا عليها شيئا. فإن الساحل فى ذلك الزمن لم يكن فى أيدى الكنعانيين، بل فى أيدى قوم وافدين من الخارج هم أولئك الشعوب الايجية الذين يسمون بالفلسطينيين. . وظل أسباط إبراهام (إبراهيم) أجيالا عديدة شعبا مغمورا يعيش فى منطقة التلال الخلفية مشغولا بمناوشات لا نهاية لها مع الفلسطينيين وذوى قرباهم من القبائل النازلة حولهم وهم: المؤابيون وأهل مدين ومن إليهم(٢).

والحقيقة المجمع عليها، هى ما أشار إليه القرآن الكريم وهو أوثق

(١) سفر يشوع الاصحاح السادس.

(٢) ويلز.

المقادر والنصوص الدينية التى لم ينلها التحريف حين تحدث باسهاب عن مجد دولة نبى الله سليمان. ونحن المسلمين نؤمن بهذه الحقيقة إيمانا لا يخالجه شك على الرغم من أن بعض مؤرخى النصرانية يذهبون إلى أن هذه المملكة اليهودية قد اصابها الضعف بعدحكم نبى الله سليمان بأعوام قليلة بحيث أنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم ونهب معظم ما بها من كنوز(١).

وقد تجزأت مملكة اليهود على قسمين هما: مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة بجوار مدينة نابلس. ومملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم. وامتد حكم الأولى من عام ٩٢٧ ق.م حتى ٧٢١ ق.م وفى هذه السنة تمكن الملك الآشورى سرجون الثانى من محو مملكة إسرائيل من الوجود. وامتد حكم الثانية من عام ٩٢٣ ق.م حتى ٥٨٥ ق.م وفى هذه السنة حل بمملكة يهوذا ما كان قد حل بمملكة إسرائيل من قبل. وقد تم هذا الاجراء على يد «بخذ نصر».

وهكذا ينتهى عهد المملكة اليهودية فى القدس وفلسطين، فكانت مدة حكمها قصيرة جدا إذا ما قورنت بمدة حكم الكنعانيين العرب. وكانت دولة ضعيفة لا حول لها ولا قوة. أضف إلى هذا ما حل بها من انقسامات أسرية وما انتابها من نكبات مميتة. يقول ولز :«ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا، تاريخ

(١) المرجع السابق، ويلز.

ولايتين صغيرتين بين شقى الرحى تعركهما على التوالى سورية ثم بابل من الشمال ومصر من الجنوب « وهذه المعانى تصورها الآيات القرآنية الواردة فى سورة الاسراء أروع تصوير حيث تقول » ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين.. ﴾ (آيه ٤).

وظلت النقمة تتوالى على العبرانيين من قبل كل الغزاة الذين غزوا مدينة القدس. فضربهم الرومان وأحرقوا هيكلهم فى أورشليم فى عهد الأمبراطور « نيطوس » عام ٧٠م. ثم ضربوهم ثانية فى عهد الأمبراطور « أدريانوس » عام ١٣٥م، الذى أمر بمحو مدينة أوشليم محوا تاما، وبنى على أنقاضها مدينة جديدة وباسم جديد هو « ايليا كابيتولينا » أو « ايليا العظمى ». ولما تمكن الرومان اشتدت عداواتهم ونقمتهم على العبرانيين لأنهم يعتقدون أن العبرانيين هم قتلة السيد المسيح. واتخذ الرومان أسلوبا فيه تحقير للإسرائيليين حين أمروا بأن يجعل مكان هيكلهم مقرا تتجمع فيه القمامة(١).

ظل الرومان يحتلون القدس والبلاد حتى عام ٦٣٦م/ ١٥هـ، حين فتحت المدينة أبوابها للمسلمين(٢)، وكان الفتح الإسلامى بها. وما المسلمون الفاتحون لها إلا موجة خرجت من الجزيرة العربية لتنشر الإسلام فى أنحاء الأرض. وهكذا دخل الخليفة عمر بن

(١) بريبست.

(٢) تاريخ الطبرى.

الخطاب مدينة «ايلياكابتولينا» موقعا مع أهلها عهدته المشهورة بالعهد العمرية. على ما سنفصله فى الصفحات التالية.

وخلاصة ما فى الأمر فان العرب هم أول الأقوام التى سكنت القدس وأنشأتها منذ زمن بعيد يعود تاريخه إلى ما قبل عام ٣٠٠٠ ق.م. كما أن الوجود العربى فى المدينة كان قد استمر بقاؤه فيها بالرغم من الاحتلال العبرانى لبعض أجزاء فلسطين بما فيها القدس.

كان الكنعانيون العرب أصحاب حضارة إنسانية منتجة أثرت كثيرا على غيرها، وكان العبرانيون هم أكثر الأقوام تأثرا بحضارة الكنعانيين لأنهم كانوا بدوا يعيشون على التنقل والترحال وهما لا يساعدان اطلاقا على الاستقرار ونشوء الحضارة الراقية والمنتجة.

كما أن حكم المملكة اليهودية فى القدس وبعض أجزاء فلسطين لم يكن حكما مستقرا أو قويا، كما أن هذا الحكم لم يستمر أكثر من فترة تتراوح ما بين القرنين والثلاثة قرون. إضافة إلى ما حل بها من حروب ومشاجرات وانقسامات أسرية أدت فيما بعد إلى زوالها. كما أن حكم المملكة اليهودية لم يكن حكما مستقلا بمعنى الكلمة لأن موقع فلسطين يتوسط بين القوى السياسية العظمى المتنازعة المتنافسة على هذا الموقع. وتأسيسا على هذا فإنه لم تقم فى فلسطين والقدس دولة قوية وذات كيان سياسى مستقل أثناء تاريخ البلاد الطويل قبل مجئ الفتح الإسلامى لها. والجدير

(١) تاريخ الطبرى.

بالذكر أن المسلمين أخذوا المدينة من الرومان أعداء اليهود(١).

وبعد الفتح الإسلامى للقدس وفلسطين عم الأمن والسلام ربوع البلاد. وعاش المسلمون والنصارى والإسرائيليون فى أمن وسلام وطمانينة، حتى أن الأرض التى أقام عليها اليهود مقابرهم ومعابدهم ومساكنهم هى أرض أخذوها من المسلمين المتسامحين مع أتباع كل الديانات. وفى العهد الإسلامى الطويل وحده حفظت معابد اليهود من الدماء. وفى العهد الإسلامى وحده ظلت المعابد اليهودية مصانة ومحترمة لأن الإسلام يعترف بسائر الديانات السماوية فى أصلها السماوى الصحيح ويؤآخى بين الأنبياء. وفى العهد الإسلامى وحده استقطبت القدس اليهود الذين شرعوا فى العودة إليها.

ولا يمكن للإسرائيليين أن يقفوا هذا الموقف لأنهم ينكرون رسالة السيد المسيح ورسالة الرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ. ومن هنا يظهر عدم اقرارهم بقدسية معالم المسيحية والمقدسات الإسلامية وبالتالى فإنه لا يمكن أن يؤتمنوا عليها. وهو الأمر الذى سنفصله فى موضعه من هذا البحث.

وقد ظل المسلمون أمناء على القدس وما فيها من مقدسات لكل الأديان. وظلوا طيلة حكمهم حماة هذه المقدسات. وظلوا أقوياء مهابين بفضل عظمة تسامحهم الدينى الذى اعترف به العدو قبل الصديق. وكان هذا التسامح الدينى قد طمأن النصارى واليهود

وجعلهم يتفيأون الأمن ويتمتعون بحرية العبادة سويا فى رحاب السيادة الإسلامية على القدس التى دامت طيلة الأربعة عشر قرنا الماضية. وهذا حق تاريخى بارز للمسلمين فيها. كما أن المسلمين هم الذين بنوا وعمروا المدينة وهم أصحاب الحق فى ملكيتها، بخاصة وأن أورشليم كانت قد دمرت تماما على يد الرومان وبنوا على أنقاضها مدينة ايليا كابيتولينا التى دخلها المسلمون بالمصالحة لا بالحرب.

obeikandl.com